

أفول التفرد الأميركي

بعلم غسان سلامه

يسمى الأميركيون الحقبة التي بدأت مع انهيار الاتحاد السوفيتي وحرب الكويت "شباك الفرص"، أو النافذة المها... والمقصود بذلك مرحلة انتهاز الظروف السياسية المناسبة لتحقيق الأهداف البعيدة المدى: تسوية بين إسرائيل والعرب ترضي إسرائيل تماماً ولا تغضب العرب كثيراً، هيمنة أقوى على منابع النفط الخليجية لتوظيفها ضغطاً على الدول المنتجة والمستهلكة على السواء، وتحقيق خروقات تجارية طويلة الأمد في مرحلة الغرب الاقتصادية الحادة بين الدول الأكثر تقدماً.

على مفترق قانا الدامي، بدأ هذا "الشباك" بالاقفال، وبدأت مرحلة انتهاء حقبة الاستفراد الأميركي بالمنطقة حرباً وسلمـاً. فعل رغم تصريحات بريـس وأنيـلـي المؤـيـدة لـذاك الاستـفـرـادـ، وعلى رغم تمـسـكـ وـاشـنـطـنـ الصـارـمـ بهـ، فإنـ الواقعـ يتـفـيـرـ بـسرـعةـ تـجـعـلـ منـ ذـاكـ الاستـفـرـادـ هـدـفـاـ مـسـتـحـيلـاـ.

لقد استطاعت الولايات المتحدة ان تجسـدـ تـحـالـافـاـ وـاسـعـاـ حدـ العـراـقـ، وـانـ تعـزـلـ عـسـكـرـياـ، فـعـزـلـتـهـ وـبـدـأـتـ بـعـدـهاـ عمـلـيـةـ عـزـلـ مواـزـيـةـ لإـيرـانـ بـينـماـ كـانـتـ توـقـعـ العـدـيدـ مـنـ اـتـفـاقـاتـ الـحـمـاـيـةـ مـعـ دـوـلـ الـخـلـيـجـ الـأـخـرـىـ الـخـائـفـةـ عـلـىـ مـصـيـرـهـاـ. عامـ ١٩٩١ـ، بـدـأـتـ وـاشـنـطـنـ "ملـكـةـ الغـرـوبـ" بلاـ منـازـعـ، تمـسـكـ بـزـمـامـ مجلسـ الـأـمـنـ الـمـطـعـعـ، تـسـتـصـدرـ ماـ تـشـاءـ مـنـ الـقـرـاراتـ، تـبـنـيـ التـحـالـفـاتـ، وـتـخـوضـ الغـرـوبـ بلاـ خـسـائـرـ.

وـاـنـ تـوقـفتـ نـارـ الـخـلـيـجـ فـيـ صـفـوانـ حتـىـ طـمـعـتـ وـاشـنـطـنـ بـدـورـ ثـانـ، دورـ "ملـكـةـ التـسـوـيـاتـ". اـذـ دـعـاـ رـئـيـسـهـاـ الـىـ مؤـتـمـرـ مدـرـيدـ، وـسيـطـرـتـ اـدارـتـهـ تمامـاـ عـلـىـ الـلـيـلةـ التـنـيـئةـ لـذاـكـ المؤـتـمـرـ، وـعـلـىـ تـحـديـدـ أـسـسـ عملـهـ، كـمـاـ عـلـىـ تـكـوـيـنـ اـجـانـهـ الـمـخـتـلـفـ، وـعـلـىـ وـتـيـرـةـ عملـهـ. وـانـعـقـدـتـ الـاجـتـمـاعـاتـ الـكـثـيـرـةـ بـيـنـ الـعـرـبـ وـالـاسـرـائـيلـيـنـ فـيـ مـيـنـيـ وـزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ الـاـمـيـرـكـيـةـ، اوـ فـيـ لـاـيـةـ مـيـرـيـلانـدـ يـرـعـيـةـ الـاـمـيـرـكـيـنـ. وـفـيـ حـدـيـقـةـ الـبـيـتـ الـاـبـيـضـ صـافـحـ رـايـنـ عـرـفـاتـ، وـفـيـهاـ وـقـعـاـ اـتـفـاقـاتـ عـدـيدـةـ كـانـ ثـمـ التـفاـوضـ جـوـلـهـاـ فـيـ اوـسـلـوـ وـبـارـيسـ وـطـبـاـ وـالـقـاهـرـةـ وـدـافـوـسـ. كـانـ التـفاـوضـ مـسـمـوـاـ بـهـ فـيـ كـلـ مـكـانـ. وـلـكـنـ الـاـمـرـيـكـيـنـ حـرـصـواـ عـلـىـ التـفـرـدـ بـالـرـصـيدـ الـسـيـاسـيـ، فـمـاـ قـبـلـهـاـ توـقـيـعـاـ بـفـيـاـبـاهـمـ اوـ فـيـ غـيـرـ مـقـرـ إـقـامـةـ رـئـيـسـهـمـ.

هـكـذـاـ جـمـعـتـ وـاشـنـطـنـ الـمـجـدـ مـنـ طـرـفـيهـ: فـيـ "ملـكـةـ الغـرـوبـ" فـيـ الـخـلـيـجـ، وـ"ملـكـةـ التـسـوـيـاتـ" فـيـ الـمـشـرـقـ. اـيـنـ كـانـ الـآخـرـونـ؟ كـانـ مـوسـكـوـ مـنـهـمـكـةـ تـمامـاـ فـيـ مـعـضـلـاتـهـ الـعـدـيدـ، الـقـومـيـةـ الـوـاقـدـيـةـ وـالـاـقـتـادـيـةـ وـالـاـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ. كـانـ بـارـيسـ تـبـيـشـ هـوـاجـسـ اـنـهـيـارـ الـاـتـحـادـ السـوـفـيـاتـ وـتـحـديـاتـ التـوـحـدـ الـاـمـاـنـيـ وـمـرـاـةـ الـتـعـاـيشـ الصـعـبـ بـيـنـ رـئـيـسـ اـشـتـرـاـكـيـ وـحـكـوـمـةـ يـمـينـيـةـ. اـمـاـ الـاـمـاـنـيـ فـكـانـ تـدـفعـ الثـمـنـ الـبـاهـظـ لـدـمـجـ جـنـاحـهـ الـشـرـقـيـ فـيـ النـسـقـ الـرـأـسـمـاـيـ وـالـدـيـمـوـقـرـاطـيـ بـيـنـماـ كـانـ بـرـيـطـانـيـاـ تـبـيـشـ عـلـىـ شـفـيرـ اـنـهـيـارـ مـحـتمـلـ لـدـكـوـمـتـهـ الـمـحـافـظـةـ ذاتـ الـأـغـلـيـةـ الـهـشـةـ. اـمـاـ الـبـاـيـانـ وـالـصـينـ فـيـدـتـاـ اـبـعـدـ عـنـ الـنـطـقـةـ مـنـ ايـ وـقـتـ مـضـ.

وـعـمـدـتـ وـاشـنـطـنـ، لـتـعزـيزـ اـسـتـثـارـهـاـ بـشـؤـونـ الـمـنـطـقـةـ، إـلـىـ دـفـعـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ خـارـجـ كـلـ بـسـاعـيـ الـتـسـوـيـةـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ. فـلـمـ تـقـبـلـ انـ يـتـحدـثـ اـيـنـهـاـ الـعـالـمـ فـيـ مـؤـتـمـرـ مـدـرـيدـ وـفـرـضـتـ عـلـيـهـ انـ يـرـسـلـ دـيـبـاـوـمـاسـيـاـ وـاـحـدـاـ يـرـاقـبـ الـمـؤـتـمـرـ مـنـ دونـ انـ يـحقـ لهـ انـ يـنـبـسـ بـيـنـتـ شـفـةـ. وـكـانـ تـعـارـضـ باـسـتـمـارـ اـنـ يـبـحـثـ مـجـلـسـ الـأـمـنـ فـيـ قـضـائـاـ الـتـسـوـيـةـ، وـلـمـ تـقـبـلـ بـذـلـكـ الاـ فـيـ حـالـاتـ دـرـاـمـاـتـيـكـيـةـ، كـانـتـ قـدـ اـخـفـقـتـ فـيـ تـجـبـيـهـاـ، كـمـثـلـ اـبـعادـ ٤٥ـ فـلـسـطـيـنـاـ إـلـىـ جـنـوبـ لـبـانـ، اوـ مـجـزـرـةـ الـخـلـيـلـ وـاخـرـاـ اـنـ مـجـزـرـةـ قـانـ. بلـ ذـهـبـتـ الـدـيـبـاـوـمـاسـيـةـ الـاـمـيـرـكـيـةـ إـلـىـ حدـ مـحاـوـلـةـ تـعـطـيلـ كـلـ الـقـرـاراتـ الـدـوـلـيـةـ ذاتـ الـصـلـةـ بـالـنـزـاعـ بـيـنـ الـعـرـبـ وـاـسـرـائـيلـ، مـاـ اـثـارـ غـضـبـ لـبـانـ التـمـسـكـ بـالـقـرـارـ ٤٥ـ، وـمـرـاـةـ سـوـرـيـاـ الـمـتـمـسـكـ بـالـقـرـارـ ٤٤ـ وـ٢٢٨ـ، وـأـسـفـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ السـاعـيـنـ لـاـيجـ القـرـارـ ١٨١ـ.

وـنـجـحتـ وـاشـنـطـنـ هـكـذـاـ بـتـدوـبـلـ مـجـلـسـ الـأـمـنـ الـمـسـكـةـ بـيـنـهـاـ اـسـتـراتـيـجـيـتـهاـ فـيـ الـخـلـيـجـ فـيـ الـوقـتـ عـيـنـهـ الذـيـ كـانـتـ تـهـمـشـهـ تـامـاـ عـنـ مـسـيـرـةـ التـسـوـيـةـ. وـقـدـ آلـمـتـ هـذـهـ الـاـنـتـقـائـيـةـ الـاـمـيـرـكـيـةـ الـكـثـيـرـيـنـ مـنـ اـبـنـاـ الـمـنـطـقـةـ مـنـ دـعـاءـ الـكـيلـ بـمـكـيـالـ وـاحـدـ، كـمـ اـشـمـأـرـتـ مـنـ تـلـكـ الـاعـتـاطـيـةـ اـكـثـرـ مـنـ عـاصـمـةـ فـيـ

◀ أ Fowler التفرد الاميركي

- تتمة المنشور في الصفحة ١ -

العالم، ولكن العالم ما كان ليقوى على هذا التحكم المتفرد تحويلاً، وخصوصاً أن تكاثر الأزمات في العالم كان يقوى من ساعد واشنطن المتجر. فهي التي هيئت لحماية تايوان من صاروخ ييجينغ، وهي التي منعت تركياً واليونان من اللجوء إلى السلاح بعد حادثة الجزر، وهي التي فرضت على المغاربيين في البوسنة اتفاق دايتون، وهي الآن ترعى تنفيذه.

✿✿✿

في قانا، بدأت المعادلات تتغير. إذ بدأ جيلاً ان الاستفراد الاميركي وصل إلى حدوده القصوى وبدأ الانهاك يصبه من كل جانب. وبصورة أدق، فإن عدداً من الفرضيات التي قام عليها ذاك الاستئثار بدأت بالتداعي.

الفرضية الأولى هي تمكّن واشنطن من مواءمة اعداء دور "الوسيط النزيه" بين الطرفين العربي والاسرائيلي بينما تستمر ساكنة عن عملية اسرائيل العسكرية في لبنان. كانت تلك المواجهة مستحيلة في الأساس ولكن التناقض تغير عندما ظهر للجميع انه ليس من "حروب نظيفة" وإن كل الحروب لا بد لها، في ساعة تأتي باكرة او متاخرة، من ان توسيخ ايدي من يقدمون عليها وكذلك ايدي من يسكن عنهم وان لم يتواترا معهم. وأمسى على واشنطن ان تختر بين دور "الراعي" المعلن، ودور "حليف اسرائيل" غير المشترط. فارتبتكت كثيراً وسارعت الى المنطة اولاً واساساً لمعالجة ذاك الارتكاب.

الفرضية الثانية هي ان "الارهاب" حالة منفصلة تماماً عن المعضليات السياسية، يمكن معالجتها من دون تناول القضايا المدورة التي تدفع الدول والقوى إلى اللجوء إلى الوسائل العنيفة، وكأنه في الامكان معالجة "الكتابوسا" بدون ذكر احتلال الأرض او كأنه في الامكان وقف العمليات الانتخارية بدون التوصل إلى تسوية شاملة ومشترفة يقبل بها الجميع. كان هذا المنطق المجنون قد وصل إلى حده الأقصى في قمة شرم الشيخ، التي أصبت، هي أيضاً، من جراء قذيفة قانا، فأمسست، في المفهوم الذي حاولت اسرائيل وأميركا فرضه عليهما، طلاً منسياً.

الفرضية الثالثة هي ان كل الأطراف المخترطة في التسوية، مصرة عليها إلى حد القبول بكل التضحيات لكي يبقى شمعون بيريس رئيساً لحكومة اسرائيل. صحيح القول ان من يؤيد التسوية يفضل حزب "العمل" على تكتل "الليكود". ولكن الانطلاق من هذا التفضيل إلى الاستنتاج ان من يؤيد التسوية قابل ضمناً بكل افعال بيريس هو خطأ في الأساس، وخصوصاً ان بيريس نفسه لا يبدو كأنه يأخذ في الحسبان احوال العرب الذين يتمون نجاحه، فإذا به يحرجهم ايماناً احراج بفوزه الجوي الدامي للبنان، ويحضرهم في موقع صعب في أعين شعوبهم. فمعنى فوز بيريس لا يمكن ان يعني للقاهرة ولا لعمان ولا للدوحة ولا لغزة أطلاقاً ليده في شؤون البلاد والعباد بلا قيد ولا شرط.

الفرضية الرابعة التي انهارت هي ان دول العالم اجمع ستبقى ساكنة ساكنة، تصفق لواشنطن عندما تنجح وتتأسف معها حينما تفشل. هذه الدول بدأت تتحرك، وجاءت مجرة قانا بالذات لتثبت ان الحاج باريس منذ اليوم الأول على وقف لاطلاق النار كان له ما يبرره. وحتى بعد ان يتم التوصل إلى تسوية جديدة في جنوب لبنان بسعى من كريستوفور وفريقي، وتكون صفحة قد طويت، سيظل على كريستوفور وخلفه ان يتبعوا الاشقاء بزمائهم الروس والفرنسيين والطليان والبيانيين، في دمشق وبيروت وتل ابيب وغيرها من عواصم المنطقة. وعليهم وبالتالي ان يأخذوا علمًا بأن العالم لن يسلم لهم بعد اليوم بدور البطل الأوحد في شرق المتوسط وغربه، لا في الدرك ولا في السلم.

الفرضية الخامسة التي بدأت بالتداعي تهم لبنان بالذات. ذلك ان واشنطن قد قررت منذ انسحاب المارينز من بيروت عام ١٩٨٤، وكرّست هذا القرار خلال حرب الكويت، ان لبنان ما هو الا مساحة تحصل فيها أمور بالإجمال غير مريةة. وبالتالي فان امور ذلك البلد ليست في ايدي ابناءه وليس في متناول يد حكومته. وقد عاد كريستوفور الى المنطقة للمرة الثامنة عشرة منذ توليه الوزارة ليكرر المعزوفة نفسها ولويحي ان الطريقة الواقعية لمعالجة الأزمة الراهنة هي في تكريس كوندومينيوم سورياً-اسرائيلي ضماني عليه، أو على الأقل في التفاهم حول مصيره في غياب سلطاته. ولكن هذه الفرضية بدأت هي الأخرى تنهار، اولاً واساساً بفضل وعي اللبنانيين أنفسهم والتتفاهم حول مؤسساتهم الشرعية وحول حقوقهم في تحرير ارضهم. وهي تنهار ايضاً بسبب وعي دمشق لأهمية ان يتحدث باسم لبنان سلطاته وحكومته وابناؤه، ولا تستمر هي تفيهم او ينتهي بذلك.

قد يأتي الترافق مرة اخرى على يد كريستوفور. ولكن صفحة من الفرضيات بدأت تطوى بينما تدخل المنطقة عمداً جديداً، للناس فيه رأي كما للحكومات. ولعواصم العالم دور كما لواشنطن، وللحقوق فيه وزن كما للتسويات، وللبنان فيه موقع كما لغيره من الدول.

غسان سلامة